

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

أثر التواضع في الفقه الإسلامي دراسة تأصيلية تطبيقية

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع (*)

المقدمة :

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضللَّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الأخلاق قد حازت في الإسلام أهمية كبرى، وتضافرت النصوص الشرعية على بيان أهميتها ومكانتها، ومن ذلك خلق التواضع، الذي يتعلق بعدة مسائل فقهية تناولها الفقهاء في مؤلفاتهم.

فاستخرت الله - سبحانه - في بحث هذا الموضوع وتأصيله، بذكر تعريفه، وأقسامه، والنصوص الشرعية الواردة فيه، وآثار السلف، ثم التطبيق على مسائل فقهية متعلقة به: كالتواضع في اللباس، والخروج إلى صلاة الاستسقاء، وتواضع أهل العلم.

والله أسأل أن يتقبل هذا الجهد، وأن يجعله من العلم الذي ينتفع به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أهمية الموضوع

تظهر أهمية الموضوع في ثلاثة أمور، وهي على النحو الآتي:

١- حاجة فقه التواضع إلى تأصيلٍ وتحريٍ؛ لأنه لم يُبحث بحثاً مستوفياً من الباحثين - حسب اطلاعي -.

(*) أستاذ الفقه الإسلامي المساعد بقسم الثقافة الإسلامية والمهارات اللغوية - كلية العلوم والآداب بربيع - جامعة الملك عبدالعزيز - المملكة العربية السعودية.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

٢- حاجة الناس لإدراك حقيقة التواضع والعمل به في واقع الحياة، خاصةً في زمن الماديات والتترف؛ مما أدى بالبعض إلى التعلق بالدنيا، والتكبر والتفاخر بها على الآخرين، مع ورود الوعيد الشديد لمن لم يتواضع وتكبر؛ مما يوجب على المرء معرفة التواضع والحذر مما يناقضه.

٣- إدراك أهل العلم لفقه التواضع، والحرص على اكتسابه وتعميقه في نفوسهم ومن حولهم، فإن للعلم سطوة في النفوس قد يشمخ المرء بها أكثر مما في المال والرياسة.

الدراسات السابقة

بعد البحث في مواقع المعلومات، وأوعية النشر المتعددة، وسؤال الباحثين المتخصصين، لم أقف - حسب اطلاعي - على بحث يحمل العنوان نفسه، أو يختص بدراسة مسائل البحث كلها، ولا يعدو ما كتب في الموضوع أن يكون مسائل متناثرة في كتب أهل العلم.

وقد وقفت على رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير، نوقشت في كلية التربية بجامعة أم القرى عام ١٩٩٩م، بعنوان: (خلق التواضع في التربية الإسلامية)، للباحث عايش بن عطية البشري، تناول فيها خلق التواضع في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، وعند الخلفاء الراشدين، وعند بعض العلماء المسلمين.

والإضافة العلمية في بحثي هي ذكر تطبيقات فقهية متعلقة بالتواضع، ولذا فإن الحاجة قائمة لوجود بحث يساهم في استكمال معالجة جوانب هذا الموضوع قدر الإمكان - والله أعلم.

المنهج المتبع في البحث

١- ترجمتُ للأعلام، عدا المشهورين، كالخلفاء الراشدين، والأئمة الأربعة، وزوجات النبي - صلى الله عليه وسلم -، وعدا المعاصرين الأحياء.

٢- عزوتُ الآيات القرآنية إلى سورها، وذكرت أرقام آياتها في المتن.

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

٣- خرّجتُ الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما لم أخرّجه من غيرهما، وإن كان في غير الصحيحين فقد خرّجته من السنن الأربعة، وإن كان في غيرها خرّجته من بقية الكتب التسعة، وحرصتُ على الحكم عليه من خلال ما ذكره العلماء المتقدمون، فإن لم أقف على حكم للمتقدمين ذكرت حكم المعاصرين.

خطة البحث

تشتمل الخطة على: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر.
المقدمة: وفيها (أهمية الموضوع، الدراسات السابقة، والمنهج المتبع في البحث،
وخطة البحث).

المبحث الأول: تأصيل التواضع، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التواضع.

المطلب الثاني: أقسام التواضع.

المطلب الثالث: النصوص الشرعية الواردة في التواضع، وآثار السلف.

المبحث الثاني: تطبيقات فقهية متعلقة بالتواضع، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التواضع في اللباس.

المطلب الثاني: الخروج إلى صلاة الاستسقاء.

المطلب الثالث: تواضع أهل العلم.

الخاتمة.

فهرس المصادر.

المبحث الأول

تأصيل التواضع

المطلب الأول: تعريف التواضع:

الفرع الأول: تعريف التواضع (لغةً):

الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض للشيء والتذلل، يقال: وَضَعَ فلان نفسه وَضْعاً، وَوَضُوعاً، وَوَضَعَةً^(١).

الفرع الثاني: تعريف التواضع (اصطلاحاً):

اختلفت تعريفات العلماء للتواضع، إلا أنها ترجع لمعنى التذلل؛ فهي لا تخرج عن المعنى اللغوي، ومن تعريفاتهم:

١- (يخضع للحق وينقاد له، ويقبل الحق من كل من يسمعه منه)^(٢).

٢- (انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل، والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله)^(٣).

٣- (إظهار التنزل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه)^(٤).

٤- (أن يرى المرء نفسه دون غيره في صفة الكمال)^(٥).

(١) انظر: تهذيب اللغة ٤٨/٣، الصحاح ١٣٠٠/٣، مقاييس اللغة ١١٧/٦، مادة (وضع).

(٢) شعب الإيمان ٥١٠/١٠.

(٣) الروح ص ٢٣٣.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٣٤١/١١.

(٥) معجم لغة الفقهاء ص ١٥٠.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

المطلب الثاني: أقسام التواضع

خلق التواضع كسائر الأخلاق له طرفان ووسط، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى خسة ومذلة، والوسط يسمى تواضعا^(١).

وينقسم التواضع إلى قسمين:

القسم الأول: التواضع المحمود:

وهو ثلاثة أنواع:

أولاً: التواضع في النفس: بأن يزدري المرء نفسه ويحتقرها عند ذكره ما قارف من المآثم، حتى لا يرى أحدا من الخلق إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات، وفوقه في الجنايات^(٢).

ثانياً: التواضع مع الخلق: بأن يترك المرء التطاول عليهم، والإضرار بهم واحتقارهم، وأن يقبل الحق منهم^(٣).

ثالثاً: التواضع مع الله تعالى: بأن يتواضع العبد عند أمر الله امتثالاً، بغير رياء ولا عجب^(٤)، وعند نهيه اجتناباً، وأن يتواضع لعظمته، فكما شمخت نفسه ذكر عظمة الله تعالى وتفرد به بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك^(٥).

القسم الثاني: التواضع المذموم:

التواضع المذموم هو أن يتواضع المرء لأصحاب الدنيا رغبة في دنياهم ومتاعهم، ونيل حظه منهم^(٦)، قال ابن القيم^(٧): (الفرق بين التواضع والمهانة أن

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٣/٣٦٨.

(٢) انظر: روضة العقلاء ص ٦٠.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٥٩.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٦٠.

(٥) انظر: الروح ص ٢٣٤.

(٦) انظر: روضة العقلاء ص ٥٩.

(٧) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، من مؤلفاته: إغاثة اللهفان، إعلام الموقعين عن رب العالمين، طريق الهجرتين وباب السعادتين، توفي سنة ٧٥١هـ. انظر في ترجمته: شذرات الذهب ٨/٢٨٧.

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

التواضع يتولد من بين العلم بالله - سبحانه -، ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفصيلها، وعيوب عملها وآفاتهما، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع... وأما المهانة، فهي الدناءة والخسّة، وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السفلى في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يربو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع^(١).

المطلب الثالث: النصوص الشرعية الواردة في التواضع وآثار السلف

الواجب على المرء العاقل أن يلزم التواضع، ويجانب التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله عليه إلا أنه كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة في الدنيا والآخرة لكفى^(٢)، فكيف وقد تواردت النصوص الشرعية في الحث عليه، والترهيب مما يناقضه، وتكاثرت في ذلك آثار السلف؟! ما يناقضه، وتكاثرت في ذلك آثار السلف؟!

الفرع الأول: النصوص الشرعية الواردة في التواضع:

• قال تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) [الفرقان: ٦٣].
قال ابن القيم: (أي: سكيناً ووقاراً، متواضعين غير أشريين ولا مَرِحِينَ ولا متكبرين)^(٣).

• وقال تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الحجر: ٨٨].
قال القرطبي^(٤): (أي: ألن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم)^(٥).

(١) الروح ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) روضة العقلاء ص ٥٩.

(٣) مدارج السالكين ٢/٣٢٠.

(٤) هو: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي، كان من العلماء العارفين، من مؤلفاته: الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر في ترجمته: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ٢/٣٠٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٥٧.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

• وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) [المائدة: ٥٤].

قال الشوكاني^(١): (وصف الله - سبحانه وتعالى - أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنهم (يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين)^(٢)).

• وقال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح: ٢٩].

قال ابن كثير^(٣): (هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه، متعزّزاً على خصمه وعدوّه)^(٤).

• وقال تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنّ الدار الآخرة ونعيمها المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوّاً في الأرض، أي: ترفّعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم)^(٥).

(١) هو: محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ثم الصنعاني، من كبار علماء اليمن، كان معروفاً بنبذته للتقليد، من مؤلفاته: فتح القدير، ونيل الأوطار، توفي سنة ١٢٥٠هـ.

انظر في ترجمته: البدر الطالع ٢١٤/٢

(٢) فتح القدير ٥٩/٢.

(٣) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المحدث والمفسر والمؤرخ الكبير، من مؤلفاته: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، توفي سنة ٧٧٤ هـ. انظر في ترجمته:

شذرات الذهب ١/ ٦٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٣٦/٣.

(٥) المصدر السابق ٢٥٨/٦.

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

• وجاء في الحديث: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)^(١).

قال القاضي عياض^(٢): (فيه وجهان: أحدهما: أن الله تعالى يمنحه ذلك في الدنيا جزاءً على تواضعه له، وأن تواضعه يُنبت له في القلوب محبةً ومكانةً وعزّةً، والثاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه)^(٣).

• وجاء في الحديث: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد)^(٤).

قال ابن عثيمين: (أن يتواضع كلُّ واحدٍ للآخر، ولا يترفع عليه، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر، وكان من عادة السلف - رحمهم الله - أن الإنسان منهم يجعل من هو أصغر منه مثل ابنه، ومن هو أكبر مثل أبيه، ومن هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى ما هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى من هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى من هو مثله نظرة مساواة)^(٥).

• وجاء في الحديث: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى. قال - صلى الله عليه وسلم - كلُّ ضعيف متضعّف، لو أقسم على الله لأبره. ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى. قال: كلُّ عُتْلٍ جَوَّاطٍ مستكبر)^(٦).

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨٨) ٢٠٠١/٤.

(٢) هو: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث واللغة، من مؤلفاته: إكمال المعلم بفوائد مسلم، والشفاء بتعريف حقوق المصطفى، توفي سنة ٥٤٤هـ. انظر في ترجمته: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ٤٦/٢.

(٣) إكمال المعلم ٥٩/٨.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥) ٢١٩٧/٤.

(٥) شرح رياض الصالحين ٥٢٤/٣.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٤٩١٨) ٢٥٤/١٢، ومسلم رقم (٢٨٥٣) ٢١٩٠/٤.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

قال القاضي عياض في قوله (كلُّ ضعيفٍ متضعّف): (هو صفة نفي الكبرياء والجبروت التي هي صفة أهل النار، ومدح التواضع والخمول والتدُّل لله - عزَّ وجلَّ - وحضَّ عليه)^(١).

الفرع الثاني: آثار السلف الواردة في التواضع:

- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (إنكم لتغفلون أفضل العبادة: التواضع)^(٢).
- وولي أبو هريرة - رضي الله عنه - الإمارة، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، ويقول: أوسعوا الطريق للأمير^(٣).
- وقال ابن المبارك^(٤): (رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا، حتى تُعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عن من هو فوقك في نعمة الدنيا، حتى تُعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل)^(٥).
- وقال الحسن البصري^(٦): (التواضع أن تخرج من منزلك فلا تلق مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً)^(٧).

(١) إكمال المعلم ٣٨٣/٨.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ١٣٢.

(٣) انظر: تاريخ دمشق ٦٧/٣٧٣.

(٤) هو: عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي، ولد سنة ١١٨هـ، وطلب العلم وهو ابن عشرين سنة، وحديثه حجة بالإجماع، وهو في المسانيد والأصول، توفي سنة ١٨١هـ. انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء ٨/٣٧٨.

(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص ١١٩.

(٦) هو: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، توفي سنة ١١٠هـ. انظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء ٤/٥٨٨.

(٧) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص ١٥٢.

المبحث الثاني

تطبيقات فقهية متعلقة بالتواضع

المطلب الأول: التواضع في اللباس

جاء في الحديث: (من ترك اللباس وهو يقدر عليه، تواضعاً لله - عز وجل -، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره من حلل الإيمان يلبس من أيها شاء)^(١).

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يلبس ما وجد من اللباس؛ فيلبس - في الغالب - الشَّمْلَةَ والكساء الخشن والبُرْد الغليظ، ويقسم على من حضره الديباج المذهب، إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لُبْس مثله^(٢).

قال النووي^(٣): (في الأحاديث المذكورة في الباب ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - من الزهادة في الدنيا، والإعراض عن متاعها وملاذها وشهواتها وفاخر لباسها، واجتزائه بما يحصل به أدنى التجزية في ذلك كله، وفيه الندب للاقتداء به - صلى الله عليه وسلم -)^(٤).

والنية مَنَاط الحكم في اللباس وعدمه؛ فمن ترك جميل اللباس بخلا لم يكن له أجر، ومن تركه تعبداً بتحريم المباحات كان أثماً، ومن تركه تواضعاً وزهداً كان

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٨٢) ٢٣١/٤، وقال: "حديث حسن".

(٢) انظر: الشفا ١/٩٥.

(٣) هو: يحيى بن شرف النووي، من كبار الشافعية، ومحرر المذهب ومنقحه ومرتبته وحافظه، كان إماماً في الحديث وفنونه، عارفاً بأنواعه، صحيحه من سقيمه، وغريب ألفاظه، صاحب المصنفات النافعة الكثيرة، ومنها: شرح صحيح مسلم، المجموع شرح المذهب، روضة الطالبين، توفي عام ٦٧٦هـ. انظر في ترجمته: تذكرة الحفاظ ٤/١٧٤.

(٤) شرح النووي على مسلم ١٤/٥٦.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

مأجوراً، ومن لبسه إظهاراً لنعمة الله، واستعانة على طاعة الله، كان مأجوراً، ومن لبسه فخراً وخيلاء كان آثماً^(١).

المطلب الثاني: الخروج إلى صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة، فقد جاء في الحديث: (خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المصلى يستسقي، واستقبل القبلة، فصلى ركعتين، وقلب رداءه)^(٢).

قال النووي: (فيه استحباب الخروج للاستسقاء إلى الصحراء؛ لأنه أبلغ في الافتقار والتواضع)^(٣).

وقال ابن عبد البر: (أجمع العلماء على أن الخروج إلى الاستسقاء، والبروز والاجتماع إلى الله - عز وجل - خارج المصر بالدعاء والضراعة إليه - تبارك اسمه - في نزول الغيث، عند احتباس ماء السماء، وتمادي القحط - سنة مسنونة سنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لا خلاف بين علماء المسلمين في ذلك)^(٤).

وهذا مذهب الجمهور من المالكية^(٥) والشافعية^(٦) والحنابلة^(٧)، وحكي الإجماع على ذلك^(٨).

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٣٨/٢٢.

(٢) أخرجه البخاري، واللفظ له، رقم (١٠٢٧) ٤٤٣/٢، ومسلم رقم (٨٩٤) ٦١١/٢.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٨٨/٦.

(٤) التمهيد ١٧٢/١٧.

(٥) مواهب الجليل ٥٤١/٢.

(٦) المجموع ٦٦/٥.

(٧) كشاف القناع ٤٤٢/٣.

(٨) فتح الباري لابن رجب ٢٩٤/٦.

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

فالسنة الخروج لصلاة الاستسقاء متواضعاً لله تعالى، متبذلاً، فلا يلبس ثياب الزينة، ولا يتطيب؛ لأنه من كمال الزينة، وهذا يوم تواضع واستكانة، ويكون متخشعاً في مشيه وجلوسه في خضوع، متضرعاً لله تعالى، متذللاً له، راغباً إليه^(١).

المطلب الثالث: تواضع أهل العلم

ينبغي على العالم، إذا نشر الله له الذكر عند المؤمنين، واحتاج الناس إلى ما عنده، أن يلزم نفسه التواضع للعالم وغير العالم؛ فأما تواضعه لمن هو مثله في العلم فإنها محبة تنبت له في قلوبهم. وأما تواضعه للعلماء، فواجب عليه إذ أراه العلم ذلك. وأما تواضعه لمن هو دونه في العلم، فشرف العلم له عند الله وعند أولي الألباب... وينبغي عليه أن يتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم العلم^(٢).

قال الماوردي^(٣): (فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التي بهم أليق، ولهم ألزم، فالتواضع ومجانبة العجب؛ لأن التواضع عَطُوف والعجب منفر. وهو بكل أحد قبيح، وبالعلماء أقبح؛ لأن الناس بهم يقتدون، وكثيراً ما يداخلهم الإعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم. ولو أنهم نظروا حق النظر، وعملوا بموجب العلم؛ لكان التواضع بهم أولى، ومجانبة العجب بهم أحرى)^(٤).

وقال النووي: (وينبغي أن لا يتعظم على المتعلمين، بل يلين لهم ويتواضع، فقد أمر بالتواضع لأحاديث الناس... فكيف بهؤلاء الذين هم كأولاده، مع ما هم عليه

(١) انظر: المغني ٣/٣٣٤.

(٢) انظر: أخلاق العلماء للأجري ص ٥١.

(٣) هو: علي بن محمد بن حبيب الماوردي، فقيه أصولي مفسر، ولي القضاء طويلاً، كان من كبار فقهاء الشافعية، إماماً جليلاً عظيم القدر، رفيع الشأن، متقناً في سائر العلوم والفنون، له: الأحكام السلطانية، الحاوي الكبير، النكت والعيون، توفي عام ٤٥٠هـ. انظر في ترجمته: تاريخ بغداد ١٣/٥٨٧.

(٤) أدب الدنيا والدين ص ٧٢.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

من الملازمة لطلب العلم، ومع ما لهم عليه من حق الصحبة، وترددهم إليه واعتمادهم عليه^(١).

وهكذا كان حال أهل العلم:

- فعن عطاء بن أبي رباح^(٢) أنه قال: (إن الرجل ليُحدِّثني بالحديث، فأُنصت له كأني لم أسمع، وقد سمعته قبل أن يولد)^(٣).
- وكان الإمام أحمد يكرم الفقير في مجلسه، وكان مائلاً إليهم، مقصراً عن أهل الدنيا، وكان كثير التواضع، تعلقه السكينة والوقار، وإذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا، لا يتكلم حتى يسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر^(٤).
- وكان ابن تيمية^(٥) يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يذني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانته بحمل حاجته؛ جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه^(٦).

(١) المجموع ٣١/١.

(٢) هو: أحمد بن عبدالحليم الحراني، فقيه حنبلي، من مؤلفاته: القواعد النورانية الفقهية، ودرء تعارض العقل والنقل، واقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر في ترجمته: شذرات الذهب ١٤٢/٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨٦/٥.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ٢١٨/١١.

(٥) هو: عطاء بن أبي رباح أسلم المكي، مولى بني جُمح، تابعي، أدرك مائتي صحابي، انتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً بالحديث، أعلم الناس بالمناسك، وكان ينادى في زمن بني أمية ألا يفتي في زمن الحج إلا عطاء، مات عام ١١٤هـ. انظر في ترجمته: تذكرة الحفاظ ٧٥/١.

(٦) انظر: الأعلام العلية ص ٥٠.

الخاتمة وأهم النتائج

في الختام أحمد الله تعالى أن منّ بإتمام هذا البحث، وهذه أهم النتائج التي توصلت إليها، وهي على النحو الآتي:

١- تعريفات العلماء للتواضع ترجع لمعنى التذلل، وهي لا تخرج عن المعنى اللغوي.

٢- خلق التواضع له طرفان ووسط؛ فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى خسة ومذلة، والوسط يسمى تواضعا.

٣- دلت النصوص الشرعية وآثار السلف على أهمية التواضع، ومنزلته في الدين، وخطورة تركه، والوعيد على ذلك.

٤- التواضع ينقسم إلى قسمين: محمود؛ ويكون مع الله تعالى والنفس والخلق، ومذموم ويكون لأصحاب الدنيا طمعاً في نيل حطامها.

٥- النية مناط الحكم في اللباس وعدمه؛ فمن ترك جميل اللباس بخلا لم يكن له أجر، ومن تركه تعبدًا بتحريم المباحات كان آثما، ومن تركه تواضعا وزهدا كان مأجورا، ومن لبسه إظهارا لنعمة الله، واستعانة على طاعته؛ كان مأجورا، ومن لبسه فخرا وخيلاء كان آثما.

٦- يستحب الخروج إلى مصلى صلاة الاستسقاء بتواضع وتذلل.

٧- يجب على طلاب العلم وأهله أن يتواضعوا، وأن يربوا الناس على هذا الخلق العظيم، وذلك بالقدوة الحسنة، وبيان فضائله ومحاسنه، والترهيب من عقوبة من ترك هذا الخلق العظيم.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

فهرس المصادر ومراجع

- ١- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، د.ط، د.ت.
- ٢- أخلاق العلماء، محمد بن الحسين بن عبدالله الأجرى، تحقيق: إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، د.ط، ١٣٩٨هـ.
- ٣- أدب الدنيا والدين، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، دار مكتبة الحياة، د.ط، ١٩٨٦م.
- ٤- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، عمر بن علي بن موسى البزّار، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
- ٥- إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني، دار المعرفة، د.ط، د.ت.
- ٧- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، أحمد بن عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
- ٨- تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٩- تاريخ دمشق، علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، د.ط، ١٤١٥هـ.
- ١٠- تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

١١- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٢- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، تحقيق: مصطفى العلوي - محمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، د.ط، ١٣٨٧هـ.

١٣- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٤- التواضع والخمول، عبدالله بن محمد بن عبيد، المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٦- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: هشام البخاري، دار عالم الكتب، د.ط، ١٤٢٣هـ.

١٧- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمرى، تحقيق: د. محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، د.ط، د.ت.

١٨- الروح، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.

١٩- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان بن أحمد البستي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.

٢٠- الزهد، عبدالله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.

أثر التواضع في الفقه الإسلامي

- ٢١- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب، د.ط، ١٩٩٨م.
- ٢٢- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
- ٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحى بن أحمد بن محمد بن العماد، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ٢٤- شرح رياض الصالحين، محمد صالح العثيمين، دار الوطن، د.ط، ١٤٢٦هـ.
- ٢٥- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: د. عبدالعلي حامد، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- ٢٦- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى اليحصبي، دار الفكر، د.ط، ١٤٠٩هـ.
- ٢٧- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت.
- ٢٨- فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، ١٣٧٩م.
- ٢٩- فتح الباري، زين الدين عبدالرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
- ٣٠- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- ٣١- كشاف القناع، منصور بن يونس البهوتي، وزارة العدل، د.ط، ١٤٣٠هـ.

د . أحمد بن محمد بن حسين رفيع

٣٢- **مجموع الفتاوى**، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، ١٤١٦هـ.

٣٣- **المجموع**، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، د.ط، د.ت.

٣٤- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.

٣٥- **معجم لغة الفقهاء**، محمد رواس قلعجي - حامد قنبي، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٣٦- **المغني**، عبدالله بن محمد بن أحمد، المعروف بابن قدامة المقدسي، تحقيق: د.عبدالله التركي - د. عبدالفتاح الحلوة، دار عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.

٣٧- **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ.

٣٨- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٩- **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، محمد بن محمد بن عبدالرحمن المغربي، المعروف بالحطاب الرعيني، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ.

* * *